مشروع (العالِم المتفرّغ لنشر العلم)

٧/ ٣/ ١٤٣٦هـ

مما يستوقف القارئ في ترجمة أبي عبيد القاسم بن سلّام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما رواه الخطيب البغدادي في (تاريخه) أنه حين صنّفَ أبوعبيدٍ كتابه (غريب الحديث) عُرِضَ على الأمير عبدالله بن طاهر، فاستحسنه، وقال: إن عقلًا بعث صاحبه على عملِ مثلِ هذا الكتاب لحقيقٌ ألا يُحْوَجَ إلى طلب المعاش، فأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر[1].

وقريبٌ من هذا، قولُ عبدِالله بن المبارك -حين كان يتّجر في البزِّ-: لولا خمسة ما اتجرت، فقيل له: يا أبا محمد، مَن الخمسة؟ فقال: سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والفضيل بن عياض، ومحمد بن السماك، وابنُ عُليّة، قال: وكان يخرج فيتّجر إلى خراسان، فكلما ربح شيئًا أخذ القوتَ للعيال ونفقة الحج، والباقي يَصِل به إخوانَه الخمسة.

وابنُ المبارك -أحدُ الأئمة- كان مستغنيًا بتجارته، ولو شاء لتفرّغ بقيّة حياته للتحديث والفتيا، لكنه آثر أن يستمر في تجارته؛ ليقوم بكفاية إخوانه من العلماء الذين سمّاهم.

---

(١) تاريخ بغداد (١٤/ ٣٩٢).

إنها نـــماذج توحي بأن فكـــرة كفايةِ العـــالِمِ، وتفريغـــه لتعليم العلم وبثّـــه في الأمة كانـــت حـــاضرةً في نفوس أهـــل الفضل مـــن الأمراء والعلـــماء؛ لما لذلك من الأثر العظيم في العـــالم وطلابه، وفي الأمة كلها.

والمشـــاهَد أن عددًا كبيرًا مـــن العلماء، تمضي زهرةُ شـــبابه وبداياتُ حياتـــه العلمية بـــين الرغبة في الطلـــب، وهمِّ توفير لقمـــة العيش التي يســـتغني بها عن الخلق، حتى إذا ما نضج، واشـــتد عـــودُه، واحتاجت الأمةُ لعلمـــه؛ إذا بقواه البدنية قد كلّت بســـبب الوظيفـــة، التي وإن لم تُثْقـــل كاهلَ البـــدن في كل الأحيان، إلا أنها تُشـــغِل الذهنَ على الأقل.

لقد حدّثنا التاريخُ عن علماء كُثر، لم يستطيعوا التفرغَ لبثّ العلم حتى اســـتعفوا من وظائفهم، منهم: القاضي والعالم المالكي الشهير أبوبكر بن العربي، حيث قال عنه مترجمه: «ثم اســـتعفى عن القضاء، فأعفي، وأقبل على نشر العلم وبثه»[1]، فتأمل في قوله: «وأقبل على نشر العلم وبثّه»، إذْ لم يأتِ إلا بعد الاستقالة.

وهذا يقودنا إلى الإجابة عن السؤال الذي يطرحه بعض الفضلاء: إذًا مَنْ يتصدى للقضاء؟ وللتدريس في الجامعات؟ ومدارس التعليم العام؟

والجواب أننا حين ندعو إلى تبنّي (مشروع العالم المتفرّغ) فهذا بالتأكيد يعنـــي أنه لا يفرّغ أيُّ أحـــد، بل يُفرغُ من عُرِف بالعلـــم وطلبه، وبثّه في الناس، وشـــهرة مثل هؤلاء لا تخفى، ويبقى في تلك الوظائف المذكورة من ليس بدرجة هؤلاء العلماء.

(١) (الصلة في تاريخ أئمة الأندلس) لابن بشكوال (ص١٤٤).

وعلى المؤسسات المانحة أن تسعى في إيجاد أوقافٍ تليق بوظيفة هؤلاء العلماء، وأن تستشـــير كبار أهل العلم في الضوابط والشروط التي ينبغي أن تتوافر فيمن يســـتحق ذلك، ويسبق هذا: وضع الشروط التي تضبط الأمر، وتحميه من الانفراط، أو التســـوّر عليـــه، فيأخذه من ليس أهلًا، ويحرمـــه من هو أهلٌ، على أن تكون هذه الأوقاف تغني أولئك المتفرغين وتكفيهم، وتراعي ما يليق بحالهم علميًّا واجتماعيًّا، وبما يرفع المنّة عنهم، فطالب العلم، بله العالم لن يرضى بأن يعيش مقتاتًا على مالٍ من شخص بعينه -مهما كان قدره-، بل إذا كان ضمن مشروع وقفي كبير، فهو أدعى لقبوله، وتاريخ المدارس العلمية[1] أكبر شـــاهد على عراقةِ هذا النوع من المشروعات الوقفية.

لقد كنتُ أتساءل منذ مدّة ليست بالقريبة: ماذا لو وجد في بلادنا علماء متفرغون لنشر العلمِ وبثّه؟ بحيث لا تخلو منهم أوقات اليوم الخمسة، كما كان حال بعض العلماء قبل انتشار الوظائف الحكومية وغير الحكومية؟

ولو نظرنا في نمـــوذج قريبٍ، لأَثَرِ تفرّغ العالم عـــلى إنتاجه المكتوب والإنتاج المتمثل في الطلاب؛ فهو لعلَمٍ من أشهر علماء البلاد -في القرن الماضي-: شـــيخِ مشـــايخنا العلامةِ عبدِالرحمنِ بنِ ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت:١٣٧٦هـ)، فقد كان يجلـــس لطلاب العلم في غالب أوقات اليوم؛ لأســـباب من أهمها: أنه كفي مؤنة رزقه، فتخـــرج به علماء كبار، نفع الله بهم الســـاحة العلمية، منهم: شيخنا ابنُ عقيل (١٤٣٢هـ)، والشيخُ ابن بسّـــام (ت١٤٢٣هـ)، وشـــيخنا ابنُ عثيمين (ت١٤٢١هـ) وغيرهم،

(١) ينظر في تاريخ كثير منها: (الدارس في تاريخ المدارس) للنعيمي (ت٩٢٧هـ).

رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى جميعًا، وهذا مما يزيدنا قناعةً بأهمية المبادرة والمسارعة في هذا المشروع العظيم.

واليومَ في بلاد الهند وبعض بلاد الإسلام من هذا النوع من العلماء كثير، صاروا -بسبب تفرغهم- مقصدًا لطلاب العلم، يسافرون إليهم، ويقرأ الطالب عندهم في شـــهر ما لا يقرؤه عند غيرهم في ثلاثة أو خمسة أشهر.

لئن كانت الكفايةُ في المعيشة في زمنٍ مضى تحصل بقليل من المال؛ فإن الحال اليوم مختلفة، بسبب الغلاء المتزايد، وكثرةِ متطلبات الحياة، وازديادِ مساحةِ التواصل مع الناس بدنيًّا وتقنيًّا، وسهولةِ السفر والتنقل من وإلى العلماء وطلاب العلم الكبار، فمراعاة ذلك مهمة، ويحســـن أن ينظر في توفير السكن الذي يؤوي قاصدي هذا العالم من طلاب العلم.

إن حقًّا على أهل الثـــراء الأخيار أن يبادروا بإطـــلاق هذا النوع من المشروعات، فهو من أعظم المشروعـــات وأجلّها، والأثرياءُ -وهم كُثُرٌ بحمـــد الله- أولى بتفريغ هؤلاء العلماءِ، وأحـــقُّ بالحرص من أهل الفن والكرة عـــلى تفريغ الفنانين واللاعبين، وبالمبالغ الطائلة ســـنويًّا، لأجل اللهو واللعب!

وبعدُ: ففي الســـاحة علماء وطلاب علم كبار، لو فُرِّغوا لبثّ العلم، وكُفوا مؤنة الرزق؛ لصاروا قبلةً لطلاب العلم من أقطار الدنيا، ولســـان حال هـــؤلاء العلماء: لا شيء أحبُّ إليّ من نـــشر العلم، والتصدي لبثّه، ولكن... فمنْ ينال شرف السبق، وعظيم الأجر؟